ثم في اوربا ، رغم ضيق ذات يده . وقد اوقعته رغبته الملحة في العلاج في الخارج في تناقضات عديدة اثرت على علاقته مع بعض صحبه ومحبيه ، كانت تجعله احيانا يقول شيئا ويكتب شيئا آخر . غير انه في قصائده الحرة لم يحد عن الخط الذي كان قد وضعه لنفسه ، ولم يخنه قط صفاء ذهنه ، حتى النهاية .

كان ذلك اليوم المشرق الجميل آخر ايام بدر في بغداد التي احبها كما لم يحب انسان بلده . فعراقية بدر قد لا يدرك عمقها الا العراقيون : اينما حل ، واينما نفى نفسه ، كانت بغداد في خـــاطره . ورموز الجدب والخصب ، رموز «بابل» من ناحية ، ورموز قريته الحبيبة « جيكور » من ناحية اخرى ، انما تمثل دوما هذا العشق لبلده واهليه . وما نشاطه السياسي وخروجه على السياسة فيما بعد سوى تعبير عن ذلـــك العشق لبلده ومن فيه .

ذهب الى اوربا ولم يفلح في علاج . وعاد بعد اشهر كسير الخاطر الى البصرة، والقى به المرض في الفراش. ومنذ ذلك الحين جاءتني منه رسائل كثيرة ، وقصائد كثيرة : عذاب كعذاب ايوب قاومه بفيض عجيب من الشعر . الى ان حمل الى مستشفى في الكويت ، وعندها انقطعت عني انباؤه – بعد محاولتي ايجاد ناشر لديوانه الاخير « شناشيل ابنة الجلبي » ، وطلبي الى الرسام العراقي البارع كاظم حيدر ان يضع تصميما لغلاف الديوان . وفي الكويت جعل يهادن الموت في شعره ، في ابيات من اجمل مـــا قيل في استسلام الانسان الفلسفي . ودخل في زمرة الخالدين .

ما الذي لنا ان نقوله ، ونحن بين فكي الفجيعة بفقدان اكبر شاعر عربي معاصر ؟ ولكن ، بالنسبة اليّ ، كان بدر اكثر من شاعر كبير . كان صديقا عزيزا حبيبا ، اترقب دوما لقاءاته التي لم تخـــل قط من تلاوة صاخبة لآخر اشعاره .

كان نقاشنا حول التجديد في الشعر نقاشا حـــارا نافذا . كان لا يتردد في شطب عشرة ابيات معا من القصيدة اذا لم ارض عنها . ولكن لمثل هذا الحديث مقاما آخر . اما اليوم ، فاننا نطلب العزاء . لعلنا نجد بعضه في قصائد بدر . لكنه عزاء مبتور حين يكون الفقيد هـذا الرجل الكبير القلب الذي بخلت الاقدار عليه باكثر من ثمانية وثلاثين عاما من العمر . رحمه الله رحمة واسعة ، وسقى قبره وابـــلا من المطر الذي كان يهواه ويتغنى به .

جبرا ابراهيم جبرا

مات الطـائر وبقيت الاغنـية

هل مات بدر شاكر السياب على سرير ؟ وفي مستشفى ؟ وبين يدي الطبيب ؟

اذاً ليضحك في قبره ! لان الكثيرين من اصدقائه لن يحلموا في المستقبل بطبيب بيطري !

مذ رأيته يترنح في « الانكل سام » ويهتز في « الديبلومات » قلت ان هذا الرجل سيسقط ميتا ، عند اول مناسبة، امام اي فندق، او صيدلية. وقد ينقضي النهار كله، قبل ان يبلّ الشرطي قلمه بلعابه، ويكتب « ضبطا » بموته .

بل مذ رأيته يرفع جوربيه المفتولين ، ويفتح فمه المختنق حتى حـــافته بالاسنان ، لينهذي عن الجدران الترابية ، ونباح الضواري في ازقة « جيكور » ، قلت : ان هـذا الرجل مؤهل الى حد كبير كي يسقط عند اول نفخة من طائرة القرن العشرين ، ومظلته مغلقة ، رغم رياح الصحف ونوابض الاذاعات !

ومع ذلـك لا بد ان نكبت اشمئزازنا ونسأل : اين كانت « النخبة » من ادبائنا وشعرائنا ، عندما كانت « النخبة » من امراضنا وكوارثنا تفتك بعزيزنا بدر ؟

طبعا لا احد يجيب . لان ما تبقى من ماء وجوههم ووجوه غيرهم لا يكفي لارواء زهرة صغيرة على قبره.

ما يحزّ في قلبي للآن ، انني لم اتذوق شعره كما يجب . لا لرداءته ، بل لانني لم احاول ذلك ابدا ، باعتبار ان ذهني مثقوب من جهتين ، جهة الماضي وجهة المستقبل ، ولذلك كنت اكره الاساطير وامقت التنبؤات ، وهما العجلتان الوحيدتان لمحفّة الشعر العربي . وقد قضى السياب معظم اطوار حياته الادبية يسعل ويحشرج ويغني فوقها ، متدهورا ، بل متضائلا من نسر الى صقر ، الى حدأة ، الى غراب – واخيرا الى عصفور اجرد صغير ، لم يجد في كل الهواء المرصوص على العالم مكانا لمنقاره البائس الصغير: لا هواء الماركسية ، ولا هواء البورجوازية ؛ لا هواء الدين ، ولا هواء الالحاد ؛ لا هواء الجنس ، ولا هواء الحرمان . ففرسه في صدره وانتهى الامر. «ان قصائده الاخيرة هي فعلا حمراء جامدة متقطعة كقطرات الدم على طرف المنقار».

وما يحزّ في قلبي ، ايضا وايضا ، هو انني استطيع التحدث طويلا عن بدر ، ولكنني لا استطيع كتابة كلمة نقد واحدة عن شعره . لان النقد عندنا ، هو اكثر من مد الاصبع المملحة الى مناطق النزف في العمل الفني ؛ انه تسجيل حيثيات ، وتعقب سافر لتجربة شخصية ، تحوم حولها الشبهات ، ما لم ترفق بصور فوتوغرافية توضح طفولتها وشبابها وكهولتها ، وكأنها صوص في وعاء زجاجي . وتجارب السياب لا تطالها شرطة النقد ، لانها اما خفيفة كالسحاب ، واما ثقيلة كالحجر ، ولذلك فان ملاحقتها اكثر صعوبة من ملاحقة الصوص خارج وعائه الزجاجي . وهنا يكمن سر مدنيتها وبربريتها .

على كل حال ، لكي تفهم السياب لا ينبغي عليك ان ترافقه في صعوده وهبوطه ، ولا ان تتعقب آثاره وتجاربه ، بقدر ما كان ينبغي عليك ان ترافقه ، فيما مضى ، على سلالم الفنادق التي ينزل فيها ، وتتعقبه امام واجهات الحوانيت التي يزجر فيها . وعند ذلك لا تفهم السياب ، بقدر ما تتأكد من ان المجنون وحده يعتقد بان حياة الفنان مرآة لفنه .

لقد كان يمشي وكأن له سبعة ارجل! يضحك وكأن حنجرته محطة فاتها قطار الضحكات منذ امد طويل ، وعليها ان تعوض كل ما فاتها عبر نكتة واحدة . لقد ظل يحدثني ذات يوم من « الانكل سام » حتى « الروشة » ، عن نوع السكاكر التي اشتراها ، ومن « الروشة » حتى مطعم « الغلاييني » عن نوع السكاكر التي كان سيشتريها . وعندما نهرته كي يكفّ عن هذا الهراء ، تشبث بذراعي متمما حديثه ، وكأنه يحاول اقناعي بانه بالامكان ازالة كل مرارة هذا الفقر والحرمان واليأس ، بكيسين من السكاكر . حتى خيّل لي ، ذات لحظة ، ان لهذا الرجل رأسا آخر لكتابة الشعر ، رأسا يستخرجه وقت الحاجة ، كما يستخرج المضطهد موسى الانتحار . ولذلك كنت اتألم كثيرا عندما لا اتخيل عالمه الشعري من خلال ذلك اكثر مما اتخيل عالم قاطع التذاكر تحت سقف من الايدي والاظافر الممدودة .

ولكن عندما نفاجأ بهدنة مؤقتة للصوصية الفن ، وتقفر الساحة من حملة التذاكر وحملة الدكتوراة ، تجد نفسك وجها لوجه ، امام العظمة ، امام ليل صحراوي طويل ، كل نجومه على وشك الانطفاء . ولذلك كثيرا ما تشتاق لان ترى نجمة واحدة فقط ، ولو كنت من اعظم سماسرة الشؤم في العالم ، حتى يكون الليل جرسا ، والفجر طفله الاصمّ الوحيد .

نجمة واحدة ، كالتي نراها تنتقل كالطائر من صفحة الى صفحة في « انشودة المطر » ، مهددة بالانطفاء في كل لحظة . حتى لتتوقع ان تلمس رمادها في كل لحظة . ولكن هذه اللحظة لن تحين ابدا ، بل تجدها في الصفحة الاخيرة على العكس تماما ، حية مشرقة ترفرف عند النقطة الاخيرة كما يرفرف الطائر حول فراخه .

نجمة واحدة ، لا الف نجمة ، والا انقلب الشعر الى فاتح اعشى ، لا يعرف كيف يتجه والى اين .

لان الجهود المبذولة لخلق الهاجس والريبة من المستقبل ، هي التي يجب ان ترصد لها الاوسمة في شعرنا الحديث ؛ واختصار النوازع الشعرية وعلى رأسها « الالم » وتخليصها من الاطراف والزوائد وكل ما يسبب التخمة ، هو قلب العمل الفني – بل هو اشبه بتخليص الشجرة الحية من مصابيح الزينة ومسامير الاعلانات . وعندنا بعض من شعرائنا المرموقين ممن هم من المسامير الطويلة التي يدقها النقاد دون رحمة في شجرة السياب .

اذ لو افترضنا ان قيمة العمل الشعري تتوقف مثلا على ما سيلقية الشاعر على قبر صغير في الصحراء ،

وجدنا ان السياب يلقي زهرة ، وغيره يلقي فراشة ، اما البعض من شعرائنا المرموقين فيلقون « قاموسا».

ان الالم ليس اميبا تكتشف في المختبر، كما انه ليس قبعة تنكس على الرأس ليراها الجميع ؛ انه سحب تمطر في الاغوار القصية من بيداء الدم ، وليس المفروض بالفنان ان يكون قاتلا حتى يكون متألما . فالبصيرة الثاقبة يمكنها ان تدل بالاصبع على الطائر المنهك واليائس ، حتى ولو كان فوق كل الرفوف وفي مقدمتها . هناك حالات معينة يؤدي فيها ضغط الآلام البشرية الى ارتخاء في مفاصل القصيدة ، والى توتر وسأم في ملامحها ؛ والآلام التي تعرض لها السياب (فقره ، مرضه ، بؤسه) تغفر له الكثير من هذه النتائج ، وتجعل قصائده الاخيرة براء من اي منهاج نقدي مسبق ، مع العلم ان تاريخ الفن سيكون اشد صرامة وسادية في تقييمه لاية انجازات في المستقبل .

ولكن ما هو الشيء الذي يغفر لبعض شعرائنا المرموقين كون قصائدهم دائما وابدا متوترة الاعصاب ، جاحظة العينين ، معوجة الساقين ، حتى ليكاد بطنها يلامس الارض ، دون ان يكون على ظهرها شيء او ان تكون حبلى باي شيء ؟

وانصافا للموتى ، وتنبيها للمحتضرين والاحياء ، نقول : لو اعتبرنا الفن ضريبة يدفعها الفنان عن حبه وكراهيته ، وسخطه وغبطته ، وغربته ووطنه ، لكان السياب من اكبر دافعي الضرائب في شعرنا الحديث ، ولكان بعض شعرائنا المرموقين من اكبر جباة الضرائب في شعرنا الحديث .

محمد الماغوط

ديوانه الأخير

من يخاف بدر شاكر السياب اليوم ؟ لا احد .

لقد اكتشف السياب فجأة — بعد موته — ان له اصدقاء كثيرين . حتى ان واحدا من الد اعدائه ومنافسيه كان سباقا عشية وفاته ليقف معلنا في تصريح صحفي له ، ان بدر كان شاعرا كبيرا .

وضحك وجه بدر الطويل الشاحب النحيل من هذا الانعام الكبير . فما فائدة هذا الوسام الماسوني الجزيل الاحترام على مخدة سوداء كبيرة يحملها صبي يتيم من « جمعية الرفق بالادباء الموتى» ، في موكب هزيل ،لشاعر كان محسوبا في عداد الاموات منذ سنوات ، لم يشأ الطبيب ان يحرر شهادة وفاته الامنذ حوالي شهرين ؟

ربما ، لا شيء . الا التأكد من ان هذا الوسام لم يمنح لحيّ ابدا . ان الموتى لم تعد تخيف احدا في هذا العصر .

ولعل موت بدر شاكر السياب قد اصبح ضرورة ملحة في السنوات الاخيرة، من اجل الشعر وتاريخه، ومن اجل بعض « اصدقائه » الشعراء بالدرجة الاولى .

لقد زال الكابوس الذي خيم فوق صدور اصدقائه ، وانتهى النزاع على قصب السبق في زعامة الشعر العربي الحديث، في مضمونه « الجديد » ومضمونه « العربي » . واصبح من الممكن اليوم ان يسمى « كبيرا » فقط . لقد سقط من الحلبة غريم قوي ، ونقص عدد الطامحين للمجد .

لا يهم اليوم ان يسمى السياب رائدا وعظيما وسباقا ، وقد مات بدر . ومن سيذكره بعد سنة ؟ يقولون (او يتمنون) : لا احد ! المهم اليوم ان يقال عن الذين كانوا يقاسمونه منافسة « المجد » انهم عظماء ورواد ، وقبل كل ذلك انهم شعراء . ان موت بدر قد وضعهم كلهم امام محك التجربة الخطرة الاولى.

وجاءت نهاية بدر شاكر السياب الملحاحة الضرورية ، في وقت ولا انسب منه . لقد مات في اليوم الذي صدر فيه ديوانه الاخير، « شناشيل ابنة الجلبي ». لقد كان لا بد ان يموت من اجل هذا الديوان .